وحدة القصيدة

في الشعر العربي

— ٣ —

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

« ثورة النقد الحديث على النهج الأدبي القديم » وقد بدأت الثورة على نظام القصيدة في الشعر العربي ، من هؤلاء الأدباء الذين درسوا الآداب الأوربية ، واطلعوا على مناهج الغربيين في شعرهم مثل مطران وطه حسين واحمد زكي أبي شادي وهيكل والعقاد والمازني وشكري وسواهم . فكتبوا ناقدين لبعض القصائد القديمة والحديثة التي لا تخضع لمنطق وحدة القصيدة ، وأنحوا باللوم على الشعر العربي عامة والجاهلي خاصة ، لقصوره في هذا الميدان . كما أزرى العقاد بشوقي وقصائده ، وعاب الشعر الجاهلي ، لأنه في رأيه وفي الغالب : « أبيات مبعثرة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود اليه ثم يخرج منه ، على غير وتيرة معروفة ولا ترتيب مقبول [١] » .

وقد جعل العقاد من العلامات البارزة في قصائد ابن الرومي طول نَفَسه ، وشدة استقصائه المعنى ، واسترساله فيه . وبهذا الاسترسال خرج من سنة النظامين ، الذين جعلوا البيت وحدة النظم ، وجعلوا القصيدة أبياتاً متفرقة يضمها سمط واحد ، قل أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات ، وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير . فخالف ابن الرومي هذه السنة ، وجعل القصيدة كلاً واحداً لا يتم إلا بتمام المعنى الذي أراده ، على النحو الذي نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ، ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها ، وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ، ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة [٢] . يريد العقاد بذلك كله أن الوحدة الفنية كاملة في قصائد ابن الرومي ، وإن كانت الجوانب الأخرى من وحدة القصيدة ضعيفة في أغلب شعره ، من حيث اشتمال قصائده على عدة موضوعات ، ومن حيث إنه كان يقدم كأبناء

---

(١) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي لمحمد خفاجي صفحة ٣٢٤ (٢) ٣٠٨ ابن الرومي للعقاد

عصره الغزل بين يدي مدحه ووصفه بل وهجائه يقول ابن الرومي : —

ألم تر أني قبل الاهاجي أقدم في أوائلها النسيبا
لتخرق في المسامع ، ثم يتلو هجائي محرقاً يكوي القلوبا

ويؤثر الرصافي الشاعر المنهج الذي سار عليه ابن الرومي ، فينادي بالوحدة الفنية في القصيدة لا بوحدة الغرض والموضوع ، فيقول من كلمة له : «ومن الشعراء العصريين من لايجوز أن تشتمل القصيدة على مطالب مختلفة ، كأنه يفضل أن تكون الروضة قد أنبتت شكلاً واحداً من الزهر ، ولكني لا أرى رأيه ، وأي لوم على من أطال قصيدته وجعلها في مطالب مختلفة ، تربط بعضها ببعض مناسبات بينها وان كانت ضعيفة ، فيتمتع القارىء أو السامع بألوان مختلفة من الأدب في القصيدة الواحدة . نعم إن الشاعر اذا بدأ يصف شيئاً وجب عليه أن يستوفي ذلك الوصف ، ثم ينتقل إلى غيره ، وكذلك إذا شرع يروي قصة وجب عليه ألا يخرج من الموضوع إلا بعد إعطائه حقه[1] » . وكرر ذلك في كلمة أخرى له[2] أجاز فيها للشعراء الخروج على وحدة الموضوع في القصيدة ، فقال : « وهناك شيء يمتحه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربي ، هو وجوب أن تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكر واحدة أو وصفاً لشيء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع . وهذا ليس من الشعر في أصله ، بل هو تابع للأذواق ، ولطريقة الشاعر في شعره . ولا ينوع الشاعر المبرز في العربية الموضوع في كل قصيدة ، فكثيراً ما يحصر شعره في القصيدة الواحدة في موضوع واحد ، واذا نوع الموضوع فهو ينتقل الى الثاني بمناسبة وبعد فصله من الأول ، مريداً بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء ، محتوية على مختلف الأزهار . وهذا أقرب إلى الطبيعة ، وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافي ما يفعله شعراء الغرب . ولكل أمة سياق ونزعة ليست لاختها . وأعتقد أن الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا العصريين لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء لما خرجوا كثيراً عن النهج الذي يمشي عليه المبرزون من هؤلاء . والسبب هو ما قدمته من اختلاف ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة ، وقيد القافية وإعرابها عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى . وقد تم كثير من الشعراء المتضلعين من العلوم العصرية بتقليد الغرب في شعره ، فلم يكن ما أتوا به غربياً ولا شرقياً ، ولم يوفقوا إلا في ألوان من الشعور هي مشتركة بين الأمم جميعاً . افرض أن العربية تتسع لألوان الشعور الغربي ، ولكن هل يوجد في أذواق أكثرية القراء هذا المتسع ، والشاعر لا يغني لنفسه وحدها . ومهما تمرد الشاعر الكبير على الأساليب

(١) سحر الشعر لوائيل يطي (٢) السياسة الاسبوعية عام ١٩٢٧

والتصورات في أُمته ، فهو لا يستطيع أن يطفر مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالف ما ألفه شعبه ، فيقطع الوشائج القوية التي تربط الحال بالماضي » .. وعلى ضوء هذا الرأي من الأيمان بوحدة القصيدة الفنية دون وحدتها في الموضوع ، كان ينظم الزهاوي شعره .. ولكن منهج الزهاوي منهج وسط بين دعاة التجديد والتقليد ، وهو على أي حال لا يوافق رأيي الذي أنادي به ، وهو وجوب التزام الوحدة الفنية والموضوعية في القصيدة . وهو رأي يوافقني عليه الكثير من النقاد والأدباء المعاصرين .

﴿الشعراء المعاصرون يؤيدون وحدة القصيدة﴾ : وقد تأثر الشعراء المعاصرون بدعوة النقاد ، وتأثروا بمناهج الغربيين في شعرهم ، ونظام القصيدة عندهم ، ووجدوا في الشعر العربي مدداً من القصائد القوية الجميلة التي تسودها وحدة تامة .

فنظم كثير من الشعراء قصائدهم على نهج جديد ، والتزموا الوحدة الفنية في القصيدة - ووحدة الموضوع والفكرة ، وانساق المعاني وانتظامها وتلاؤمها والتحامها ، مع التسلسل والتتابع ، والدقة والعمق والاحاطة ، مما سار بالقصيدة العربية بخطى واسعة نحو الجمال الفني المنشود . لم تقبل أذواقهم هذه الطفيلة الغريبة في القصيدة ، وكيف يقبل ذوق شاعر متحضر مرهف الحس أن يوحي اليه شيطانه بأفكار متناثرة في موضوعات مختلفة؟

ويظهر هذا الاتجاه الفني الجديد في القصيدة العربية في شعر كثير من شعراء العربية المحدثين ، من أمثال : مطران والدكتور أحمد زكي أبي شادي وشكري وميخائيل نعيمه وعلي محمود طه والعقاد وسواهم .

فأنت إذا قرأت قصيدة الدكتور أبي شادي : « شجاعة بطلة » في ذكرى بطل تحرير شيلي التي نشرتها المجلات الأدبية وأذاعتها محطة الاذاعة المصرية قريباً أو قرأت سواها من شعره ، كقصيدته : قبلة ميلادي [1] مثلاً ، والتي يقول منها :

يا ثمرة الحب القديم ولهفة الحب الجديد
جمعتكما في قبلة سكرى غرامي وعهودي
أودعتها ما صاغت الأحلام من عطر الخلود
وسكبتها راح الهوى ودما من الشوق الشهيد
ثم استعدت خيالها لحناً تألق في نشيدي
ونظمتها شعري الذي يحيا بأنفاس الورود
وخلقت أي هدية منها لميلادي السعيد

(١) ديوان أبي شادي — من السماء صفحة ٥٥

وكأنها هي نغمة زفت إلى سمع الوجود

أو قرأت قصيدة « آفاق القلب » لميخائيل نعيمة ، التي مطلعها :

دموع العين قد جمدت وريح الفكر قد همدت
فلمْ يا قلب لمْ يا ملـ ـتهبُ فيك النار في لجب

أو قرأت قصيدة شكري :

ماذا دها القلب من الاشجان يوم الأحد
حيث الغواني فتنة آخذة بالجلد [1]

أو قصيدته « يا وضيء البسمات » [2] :

يا وضيء البسمات وحيي الوجنات
ليت لي منك ائتلافاً كائتلاف النغمات
أنت في الدهر ابتسام كابتسام الزهرات

أو قرأت قصيدة الفلاح لشفيق معلوف [3] :

وقضى الحياة ديونها كرماً وما وفيت ديونه
ومضى تشق الأرض قبضته بعزم لا يخونه
مهلاً نظرت جبينه كم فيه لؤلؤة تزينه
ضنت عليه بالدمو ع عيونه فبكى جبينه

أو قرأت قصيدة الفلاح للشاعر حسن جاد [4] :

مضنى يقص الدهر عن كدحه وتسمر الايام في بأسه
على محياه سطور الضنا قد خطها المقدور في طرسه
مغضن الصفحة يطوي بها دقائق الأسرار عن نفسه
يبيت صفر اليد من عدمه والذهب الأبريز من غرسه
من كلما مس الثرى كفه أساله تبراً ندى مسه
حي فصيحُ الشكو في عيشه يبثه لله في همسه
قد خطها شكوى على أرضه ذاك اليراع الحر من فأسه

فستجدون في كل ذلك قبساً من الشاعرية الحقة ، وشعوراً عميقاً بالحياة ، ووحدة كاملة في الصورة الفنية التي يرسمها الشاعر ، وتجاوباً بين الفكرة والخيال والعاطفة والاحساس والموضوع .

[يتبع]

(١) الديوان الاول لشكري ص ١١ و ١٢ (٢) الديوان السابع لشكري ص ١٦—١٨
(٣) مجلة العصبة — سان باولو — ١٩٤٧ عدد يوليو (٤) مجلة الازهر والرسالة ١٩٤٩